منازل الصابرين في آيات القرآن الكريم
قراءة جمالية ثقافية

أ. د. هناء جواد عبد السادة و د. رفعت اسوادي عبد حسون الناشي

الملخص

كان القرآن الكريم وما زال نبعاً صافياً يَرِده الدارسون بشغف لإظهار سمات إعجازه وبلاغته ويقيناً أن الإسهام في هذا المضمار المقدس شرف ومسؤولية كبيرة.

يُعد الجمال سمة إلهية وصفة من صفاته، قد وهب الله سبحانه وتعالى جزءاً منها لعباده البشر بصورة عامة ؛ وتفاوتت سمات الجمال بينهم، فمنهم من كانت السمة ظاهرة عليه علناً، ومنهم من كانت مضمرة فيه، لا تُرى إلا بواسطة المدارك المعنوية، فالصفة المضمرة طرية مرنة تسمح للدلالات الصريحة والضمنية أن تتدخل بتنظيم أنساقها ؛ فهي تتقلب بمستوياتها من رؤية إلى أخرى ؛ بحسب الثقافة الجمعية والفردية للبشر وما يكتنز الإنسان من موروث في ذاكرته.

تناول البحث بين طياته (منازل الصابرين في آيات القرآن الكريم قراءة جمالية ثقافية) لما لها من وقع في نفوس المسلمين، ودلالة جماليات الصبر حين توسم بـ(الصابرين في آياته) والآيات لها أهمية كبيرة في حياتنا، ولاسيما الاجتماعية والسياسية والدينية، وإن مواطن الجمال التي بين طياتها، قد أشغلت العلماء والفقهاء وباتت موضوع أبحاثهم، وتفسير الحكمة الإلهية في ماهية الجمال.

تُعد أهمية الموضوع كونه يحاكي حقبة طويلة من الزمن – منذ الخلق- ويخص المجتمع الإنساني الذي مَثَل الجمال حياته الكاملة، على وفق مما أراده سبحانه وتعالى حين قال: (إِنِي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَةً)١ فبهذا الجعل الإلهي لا بد أن تتحقق صفات الجاعل في أرضه، وتتمثل بمخلوقه الذي جعله خليفة له، لذا كان الجمال ومازال وسيبقى عند الإنسان تبعاً يرتشف منه ليكون مصدقاً لذلك الجعل الرباني.

لما كانت المناهج البحثية أداة مثلى للوصول إلى النتائج المرضية، والوقوف على الحقائق، لذا كان المنهج الاستقرائي الثقافي الحديث، خير عون للوصول إلى تلك النتائج، والوقوف على مفاهيم الجمال وتسمياته.

المبحث الأول: التعريف اللغوي والاصطلاحي للصبر.

المطلب الأول:

التعريف اللغوي للصبر:

مما لا خلاف فيه أن اللغويين قد اعتنوا بتعريفات أغلب مفردات اللغة وكانت تعريفاتهم لأجل حفظ اللغة والحرص على أصالتها وبيان حسن النطق بها ومعرفة أصول كل مفردة من مفرداتها ومعرفة اشتقاقاتها ولعلهم تناولوا في هذه التعريفات كل صغيرة وكبيرة -ولا شك- أن تعريف كلمة (صبر) كانت واحدة من تلك الإعتناءات وإذا تصفحنا معجمات اللغة نجد أن اللفظة قد أخذت حيزاً كبيراً من ذلك الاعتناء لما لها من أهمية.

قال صاحب العين: ((صبر: الصبر: نقيض الجزع، والصبر: نصب الإنسان للقتل، فهو مصبور، وصبروه أي نصبوه للقتل، والصبر أخذ يمين إنسان، تقول: صبرت يمينه أي حلفته بالله جهد القسم، والصبر في الأيمان لا يكون إلا عند الحكام))٢.

أما رأي الجوهري: ((وقد صبر فلان عند المصيبة يصبر صبرا، وصبرته أنا: حبسته))٣، قال الله تعالى: (واصبِر نَفسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بِالغَدوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجهَهُ)٤.

المطلب الثاني

التعريف الاصطلاحي للصبر:

فنجد أن العلماء الأعلام وأساطين هذا العلم قد تسالموا على أن للصبر مهام في التعبير عن ذاته عدة منها:

هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها وتجرع المرارة من غير تعبس وهو التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصصى البلية وإظهار الغني مع حلول الفقر بساحات المعيشة وقبل الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وثبات النفس، أو هو احتمال المكاره من غير جزع، أو هو قسر النفس على مقتضيات الشرع والعقل: أوامر ونواهي، وفي الرواية: قال جبرئيل عليه السلام في تفسير الصبر: تصبر في الضراء، كما تصبر في السراء، وفي الفاقة كما تصبر في الغنى، وفي البلاء كما تصبر في العافية، فلا يشكو حاله عند المخلوق٥، وفي رواية: فلا يشكو خالقه عند المخلوق بما يصيبه من البلاء٦، وفي بيان أنواع الصبر، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية٧.

ويرى صاحب كشاف الاصطلاحات، أن الصبر ينقسم على فرض ونفلٍ ومكروه وحرام، فالصبر عن المحظور فرضٌ، وهو عن المكروهات، والصبر على ما يصيبه من الم لترك المحظور، كما لو كان القصد شهوة محرمة، وكذلك الصبر على ما يصيبه من مصائب في أهله، وأما الصبر المكروه، فهو صبره على ما كره فعله بالشرع وهو المحك الحقيقي للصبر، وقيل الصبر ترك الشكوى من الم البلوى إلا لله سبحانه وتعالى، والصبر على الضرب الشديد، والصبر النفسي وهو منع النفس عن الشهوات، وغيرها٨.

المبحث الثاني: الإدراكات الجمالية مراحل تشكيلها:

المطلب الأول:

الإدراك الجمالي:

إن الإدراك الجمالي غاية سامية لما له أهمية في حياتنا، فالحياة دون أن يعرف الإنسان ما جدوى الجمال لا تستحق أن تعاش، فللجمال قيمة روحية كبيرة في حياتنا، ولو حاولنا النظر إلى الواقع من حولنا تحولت الإدراكات الجمالية نفعية تسر القلوب وتثير الخاطر، وثم يأتي دور الدين نافذاً إلى قلب الإنسان يغمره بالإيمان والأمان ويجعله يتأمل في ملكوت الله سبحانه وتعالى، حينها يدرك أن الحق، والخير، والإيمان، خير مطلق بذاته.

تُعد معضلة المعنى من أهم المعضلات الفلسفية التي واجهت الفلاسفة أثارت تساؤلاتهم ؛ هل أن المعنى هو في الشيء المتجانس الذي لا يطرأ عليه تغير، أم أن الذات تشترك مع ماهية الشيء وطبيعته في إنتاج المعنى، على وفق ما ذهب إليه السفسطائيون٩ ، فقد تنبهوا إلى أهمية الإدراك الحسي الفردي، فهذا بروتاغوراس، يرى أن الحق ما يبدو لحواسي على انه هو حق تماماً مثلما يبدو لحواسك أنت أيضا١٠.

أما بارميندس فقد أهمل عملية الإدراك في تشكيل المعنى إذ كان يرى ثمة طريقين للمعرفة: طريق الحقيقة (العقل) وطريق الظن (الحواس)١١، فهو يرى العالم ذو طبيعة سكونية واحدة١٢ ،لقد جعل السفسطائيون ؛ الذات طرفاً في إنتاج المعنى، لأنهم اعتقدوا أن الأشياء في تغير دائم، وان مقياس هذا التغير هو الإنسان على ما يبدو وعلى ما يظن١٣.

لا شك أن الجمال يستند إلى الموضوع والذات معاً، فالإنسان لا يدرك الجمال ما لم يكن هناك موضوع، ولا يمكن لجمال الموضوع أن يدرك ما لم تكن هناك ذات مدركة للجمال بإحساسها الواعي، وفي الكثير الغالب يكون الجمال مرئياً أو مسموعاً١٤، فحاستا البصر والسمع الحاستان الرئيسيتان في إدراك الجمال١٥، إن الإدراك الحسي (sense perception) هو انعكاس شيء ما في الوعي نتيجة لتأثير العالم الموضوعي على الحدس والإحساسات١٦، فهو لا يتعدى مجال أو عملية تلقي المؤثرات الخارجية عن طريق الحواس١٧.

يرى البحث إن الإنسان بحاجة ماسة إلى تنمية الإحساس الجمالي، والتذوق الفني الذي يكون مضمون الإدراك الجمالي، ليس لدينا فقط وإنما من واجبنا أن نعمل على تنمية الذوق الفني في وجدان أجيالنا، وتشجيع قدراتهم على الإحساس بالجمال والإبداع في كل ما يحيط بهم، ليحيوا حياة إيمانية صحيحة في كنف جمال الحق والخير.

المطلب الثاني:

مراحل تشكيل الإدراك الجمالي:

إن مراحل تشكيل الإدراك تأتي من التأمل والصمت ؛ والصامت متأمل بعمق وغير آبه بحركة الحياة من حوله، وهذا السكون والتأمل يكون موجهاً بكامله نحو موضوع تأمله الذي ينفرد بالانجذاب نحوه، ويتفرد في معايشته في صمت ومتعة، أو في حدس ولذة بحيث لا يفكر في شيء آخر غيره ؛ فكأنه منفصل عن العالم، ومن هنا يولد وظائف أو منافع في ذات الموضوع

ليشكل مراحل الإدراك.

١- الاكتشاف ٢- الإرسال ٣- تحويل الطاقة من شكل إلى آخر ٤- تجهيز المعلومات (خلفية معرفية) ١٨.

يقوم النظام الحسي على وفق هذه العمليات أولاً بكشف المعلومات التي تلتقطها الحواس ثم يتم تحويلها إلى طاقة بأشكال مختلفة ليتسنى إرسالها بعد تحقق الإدراك بها الذي بدوره قد جعل لهذا الإرسال خلفية معرفية لدى المتلقي يتم اللجوء إليها بعد كل عملية استقبال جديدة ١٩.

يتم الإدراك الحسي بسلسلة من العمليات المعتمدة على الطاقة التي تؤثر على حالتنا النفسية واتجاهاتنا العقلية والعاطفية إذ تقوم المنبهات الجمالية – في موضع الأُنس – أمام الحواس فتستثير استجابات التأويل والتخيل والتأمل والانفعال٢٠.

ويرى علماء الجمال أن الجمال يمثل التكيف الكامل للموضوع مع وظيفته، أي تكافؤ الصورة مع غايتها، وان أروع تزيين يمكن أن يتحلى به أي بناء، إنما هو ذلك الذي ينسجم مع وظيفة البناء ذاته٢١، بعدما يحقق العضو الوظيفي وظيفته دون عائق٢٢.

لعل الشعور بالجمال لا يتحقق إلا بعد تربية الذوق الجمالي لتحقيق التوازن المطلوب في الطاقة بين المدرك والشيء المدرك وقد تطول مدة الانجذاب أو تقصر، حسب الطاقة الجمالية لدى المدرك والشيء المدْرَك – في الإرسال والاستقبال٢٣– فإذا كانت الطاقة الجمالية لدى المدرِك قليلة لا يصل إلى إدراك ما هو أكثر وربما تكون طاقة المدرِك هائلة فلا يستجيب عندئذ إلا لما هو أعلى من طاقته، أو العكس، لذا نرى علماء الجمال قد نادوا بتربية الذوق الجمالي في مراحل مبكرة من حياة الطفل، حتى ينشأ مدركاً للجمال٢٤، ويعد القرآن الكريم المصدر الأول للطاقة الجمالية إذ يدعو إلى الإنصات إليه وتدبر آياته٢٥ .

وخلاصة القول- إن للجمال مرجعيات كثيرة وزعت بتفاوت على البشر كافة، منها معنوية ومنها حسية ؛ وكلها هبةٌ من الله سبحانه وتعلى ؛ ليجعل للإنسان قدسية، وقدمه على باقي المخلوقات، وقد جاء وصفه، للجمال بقوله تعالى: (لَقَد خَلَقنَا الإِنسَنَ فِي أحسَنِ تَقوِيمٍ)٢٦.

المبحث الثالث: تطبيقات لقراءة جمالية ثقافية:

المطلب الأول:

الآيات الواصفة للصبر:

لقد أشار الخطاب القرآني للناس كافة بالنظر والتأمل في هذا الملكوت وتدبره فقد أحاطت آياته بالظواهر الكونية في شمولية وعمق ما جاء به القرآن الكريم بإعجاز بياني قد الهم العرب، لما فيه من حسن بيان، وصياغة أدبية عالية ؛ لذا حين سمعت العرب هذا البيان العالي أذعنت وعلمت أن هذا الكلام لا يستطيع أن يأتي به أي إنسان على وجه الأرض، ولو لاحظنا الآيات المكية وما فيها من بيان وجمل قصيرة وإيقاع عالٍ، سوف تتجلى لنا ماهية الجمال الذي أراده الله سبحانه وتعالى وجسده في كلامه ؛ فالقرآن قطعة جمالية كلامية متكاملة توحي بقدرة الله على خلق الكون اللا متناهي، ورسم خارطته الجميلة وخارطة الحياة الإيمانية للإنسان ببيان متجانس ذات جمالية قد تدركها الأبصار وقد لا تدركها ؛ وما جاء في كلام الله سبحانه وتعالى في آياته من ذكر (للصابرين)، التي توالت عشرة مرات في الكتاب كان أربعة منها تقول: (مع الصابرين) ؛ تجلت ببث الإيمان والطمأنينة وجماليتهما في خلج الإنسان.

قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) ٢٧.

لقد أحاطت هذه الآية بالظواهر الحسية التي يتعامل معها الإنسان، في شمولية وعمق ليتسنى لكل متأمل سبر أغوار الحياة وما فيها من تجليات بقوله: (ولنبلونكم) أي: ولنختبرنكم، ومعناه نعاملكم معاملة المختبر، ليظهر المعلوم بما يخبئ الإنسان من خفايا ونوايا، اتجاه الحس الإنساني الذي وهبه الله للبشر، وهنا تكمن جمالية الصبر على الاختبار الإلهي ؛ فوضع الإنسان بشيء من الخوف، والجوع، ونقص الأموال، يحيل إلى الذاكرة أن العبد بهذا المستوى من الاختبار يعني أنه مختار من قبل الله سبحانه وتعالى، وهذه غاية جمالية يحس بها الإنسان لما له من منزله عند ربه، فالتحمل هنا يأتي بتمتع العبد بجمالية الاختبار، من خلال الحواس بكل تفاصيلها وقد شكلت لفظة لنبلونكم هنا الفعل ألإفهامي لهذا الإدراك أو(الإحساس الجمالي بحسب سانتيانا)، الذي يصيب الإنسان عندما يريد أرضاء ربه، لتهل علينا الدلالة النسقية المكتنزة في بنية الفكر العربي بقوله: (وبشر الصابرين)، وهكذا ينتهي الانتظار والحرمان بمجزية الله التي

ليس لها حدود، فتواشجت جمالية الصبر على البلاء، وجمالية البشرى الإلهية غير المنقطعة بالنعم وسرور الحياة الأبدية التي رسمها الله (للصابرين).

قال تعالى:

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)٢٨ .

إن سياق الآية الكريمة يدعو إلى التأمل والتفكر، في حسن الترتيب والانتظام من مصادر الطاقة الجمالية، الكامنة بقوله: (إن الله مبتليكم بنهر)، فهذا الابتلاء جاء بدلالة بيانية جمالية أي من هو الصادق أو الكاذب فيكم، والسبب الذي لأجله ابتلوا بالنهر شكايتهم قلة المياه، وخوف التلف من العطش، فسبحانه وتعالى أراد اختبار إيمانهم وإحساسهم وهم داخل النهر بان الماء غير مسموح بشربه، إلا غرفة واحدة بيده، وذلك يولد لديهم عوامل سيكلوجية تعيد إلى الذهن كل الصور الذي عاشها الإنسان في السراء وقوله: (فمن شرب منه فليس مني)، دلالة حسية على أن الشارب قد خرج من ملكوته ونعمته سبحانه وتعالى، وبقوله: (والله مع الصابرين)، نرى جملة ثقافية ممتلئة بالمعاني والمحاكاة، وتتحلى بمعادل موضوعي، بنفعيتها، ووصفيتها، وتاريخيتها، فمنفعة (الله مع الصابرين) تتجلى تداولياً بأن الله هو السند القوي الحكيم الذي يدرك الأمور قبل وقوعها، وهو السد المنيع لحماية واطمأنة الصابرين، أما وصفيتها فهي وعد الله الذي إذا قال للشيء كن فيكن، وأما تاريخيتها، فهي أزلية وسرمدية وكلمة الله الصادقة وهي الحق وباقية إلى يوم الدين، يتمتع بها (الصابرين) جزاء صبرهم.

قال تعالى:

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)٢٩.

هذه الآية رقم ١٧ من سورة آل عمران، وقد لاحظ البحث أنها متعلقة بالآيتين التي قبلها، رقم ١٥و١٦ اللتان تقول: (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَالِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ-١٥- الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ-١٦- الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ-١٧-) وهذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى، قد خص مجموعة أو فئات محدودة من عباده بمزايا محددة في الآخرة وهي ثلاثة: ١- جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ٢- أزواج مطهرة ٣- رضوان من الله ؛ وهذه الخصائص المحددة لا تكون إلا للفئات الخمسة التي خصها الله سبحانه وتعالى في الآية رقم ١٧، وهم الصابرين، والصادقين، والقانتين، والمنفقين، والمستغفرين بالأسحار ؛ فالصابرون هنا لا تشمل كل مؤمن صابر، لأن الله سبحانه وتعالى قد حدد فئة محددة من الصابرين في الآية التي سبقتها رقم ١٦، وهم الذين يقولون ربنا إننا آمنا ففغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ؛ وإذا عدنا للآية رقم ١٥، لوجدنا فيها أن الله سبحانه خص مجموعة من هذه الفئات ألا وهم (المتقون)، فمن جماليات التعبير القرآني هنا أن الله سبحانه لو لم يذكر الآيتين ١٥-١٦ قبل الصابرين، لكان القول كالآتي: المتقين الذين يقولون ربنا اغفر لنا الصابرين، المتقين الذين يقولون ربنا اغفر لنا الصادقين، وهكذا على الفئات الخمسة كلها.

ولو لاحظنا أصوات الآية وجماليات الانسجام، نجد أن تشابه واضح بين حروف الكلمات المتجاورة ؛ فقد واشج بين صابرين وصادقين بحرف الصاد، وبين الصادقين والقانتين بحرف القاف، وبين القانتين والمنفقين القاف أيضا، وبين المنفقين والمستغفرين بحرف الفاء، وجمع الفئات خمستها بحرفين اشتركا بهن جميعاً الياء والنون، وهذا الجمال الصوتي منسجم للفت الانتباه، ويبدو أن الله سبحانه وتعالى قد ربط بينهما في هذه الحروف، كما جمع بينهما بالمنزلة والمزايا الثلاثة السابقات في بداية قراءة الآية، ومن الملاحظ أن البحث لم يستطع أن يقرأ الآية ١٧ دون الرجوع إلى الآيتين ١٥-١٦ مستعيناً بالدلالة النسقية الثقافية المتعلقة بمعرفة الخطاب القرآني المتداخل بين الآيات المذكورة.

قال تعالى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)٣٠.

ابتدأ سبحانه وتعالى بتوجيه الاستفهام الإنكاري ؛ لما للجنة من مكانة خاصة عند المسلمين ؛ بوصفها المكافأة

الجميلة التي تعطى باستحقاق للعبد المؤمن إذا جاهد وتحلى بالصبر، فهنا لحظ البحث أن الدعوة للجهاد المقرونة بالصبر هي موروث إيماني يحتل مكانة في فكر المسلمين (الصابرين)، يتجلى عند العبد إزاء خالقه وبين ما يناله ويحصل عليه من نعم أوعدهم بها الله سبحانه، في عالم الآخرة بدخولهم الجنة، ومما تجدر الإشارة إليه أن المسلمين في مرحلة اختبار تلك التي يجريها الخالق، ومن خلال دلالة الأنساق الثقافية التي أمليت علينا من خلال المؤلف المزدوج الذي يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى خص فئة معينة من المؤمنين هم (الصابرين).

قال تعالى:

(وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) ٣١.

يرى البحث، أن ذم الوهن والضعف والاستكانة، هو مطلب الهي للارتقاء بمجتمع إيماني تسوده الرحمة والمحبة، بالتفاتة جمالية عالية المضامين وهي حالة المحب التي يحيط بها الخالق عباده الذين ينبذون الضعف والوهن والاستكانة، وهذه الحالات ذميمة تخالف الجمال الذي يتحلى به المؤمنون، والمطلوب هو التفاني والإخلاص التي ينبغي للعبد أن يتحلى بها، ويظهرها لله ورسوله، وفي الآخر هي وشائج محبة بين المخلوق والخالق، فتنبعث علاقة التربية الجمالية في حب العبد لربه، بقوله: (يحب الصابرين).

قال تعالى:

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) ٣٢.

بدءً لاحظ البحث الرحمة والرأفة من الله تجاه المؤمنين، وهي من جماليات الخالق جل وعلى، وكان تعبير سياق الخطاب فيه ترقيق لما في المؤمنين من وهن، فقوله: (فيكم ضعفاً) استعمل كلمة (ضعف) لما فيها من معاني تداولية وصورة بلاغية كي لا يسبب حرج للمسلمين وإنما المراد هو ضعف البصيرة والعزيمة، ولم يرد ضعف البدن ؛ كما وعدهم بالنصرة والمعونة كونهم ضعفاء وقلة، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة، للدلالة على أنّ حكم القليل والكثير واحد لا يتفاوت، لأنه وعد الله أراد لهم الغلبة، ولأنّ الحال قد يتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين، كل هذا متحقق، وكرر قوله: (والله مع الصابرين) أصحاب القوة والشكيمة والبصيرة واليقين.

قال تعالى: (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) ٣٣.

يبدو للمتتبع أن هذه الآية قصيرة وسهلة التحليل، فأول ما يحيلنا اسم إسماعيل إلى الآية الكريمة ٥٤ من سورة مريم فقد جاء فيها: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ٥٤) والآية٥٥ (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوةِ وَالزَّكَوةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً-٥٥-) فهنا يخبرنا الله سبحانه وتعالى، على الأخلاق التي يتحلى بها إسماعيل (عليه السلام)، فكان صادق إذا وعد وفي وهذا من علامات أهل الدين والصلاح، والوفاء كلمة جميلة الوقع في الأذان، وفي الحياة، والأهل والأصدقاء وللإنسانية جمعاء، وبهذه النعوت الإلهية لإسماعيل تولد لدينا عدة جمل ثقافية في الدلالة النسقية لذكره ؛ ف(صادق) و (رسول) و(نبي) في الآية ٥٤ جمل ثقافية قائمة بحد ذاتها، تتمتع بنفعية الإنسان من هذه الجمل، ولها وصف كبير عالق في ذاكرة الإنسان وما تعني له، وتاريخيتها جاءت من النسق التاريخي لخلق البشرية وأبيها (آدم عليه السلام)، وفي الآية ٥٥، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهذا هو التكليف الشرعي للرسل والأنبياء، وأصبح بعدها مرضياً عند الله تعالى، وأما كونه من (الصابرين) في الآية ٨٥ من سورة الأنبياء، فجاء لصبره على الذبح كما جاء في قراءة البحث الآية ١٠٢، من سورة الصافات التي تلي هذا القراءة. (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ٥٦) والآية ٥٧ (وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً-٥٧-)

أما نبي الله إدريس فقراءة البحث للآية ٨٥ من سورة الأنبياء تحيلنا إلى الآية ٥٦ و٥٧ من سورة مريم، التي تقول: .(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ٥٦) والآية٥٧ (وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً-٥٧-) لقد أثنى الله سبحانه وتعالى على إدريس بالصدق والنبوة، وجاء في قوله: (صديقاً) وهي للمبالغة في صدقه، وجمال أخلاقه، أما رفعه في مكان عالٍ، فجاء نتيجة خشوعه خوفاً من غضبه وعذابه، وكان من المخلصين الذين يأتمرون بأمر الله، وكثرة دعائه وتضرعه وعبادته، وكونه من (الصابرين) في الآية ٨٥ من سورة الأنبياء، فكان ممن يستغفرون بالأسحار.

وأما ذي الكفل فكان من الأخيار

المصطفين والمتقين لذا جعله الله سبحانه وتعالى من (الصابرين)، وتكمن جمالية الآية وسياقها الخطابي أنها كانت خبرية تبين أحوال الأنبياء (الصابرين).

قال تعالى:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) ٣٤.

إن الخطاب القرآني منح للممارسة العقلانية صورة فعالة من خلال مخاطبة العقل وشحذ الإدراك الجمالي للتسامي نحو المعرفة الخلاقة في محاورات الوجود والعقيدة، وما تمخض عن هذه المحاورات من انسجام للآخر، أو اختلافه ؛ وأسهمت ممارسة التجربة التي أوضحها الحوار في تعميق وبلورة الحدث القصصي في الإدراك الواعي الذي يتجلى في تجسيد الصورة الذهنية لدى المتلقي (القارئ).

ولحظ البحث حوار الأب مع ابنه في النصح والإرشاد والتربية الجمالية ؛ وما جاء في حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل، ثقافة التحاور والتشاور لا على التقاليد والمحاكاة للموروث السابق، فهي التربية الجمالية التي توصل الأبناء إلى الانسجام والتماهي الواعي كما حرص الآباء على وعظ وتذكير الأبناء وتحذيرهم من العقوق، والتلطف بالدعوة إلى أمر الله وإظهار العبودية التامة له.

قال إبراهيم (عليه السلام): (يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك)، فبكلامه جسد صورة الإيمان وجماله المطلق المنبعث من يقين، في أثناء الحلم، فالنسق القرآني يرشدنا من خلال لغة الخطاب ويبين لنا الصبر الجميل الذي كان يتحلى به النبي إبراهيم (عليه السلام) في ذبح ولده تقرباً لله سبحانه وتعالى، فالإنسان عندما يصاب احد أولاده بأبسط مكروه يصيبه الجزع، فكيف يذبح ولده بسكين وبيديه؟ ؛ الجواب أنه الإيمان – نعم- التمتع بجمال الإيمان ؛ ولكن الدهشة الكبرى موافقة الابن وابتهاله لله أن يجعله من الصابرين، فقد أعطانا مقطع صوري لحوارية إيمانية، كانت حاضرة عنده، وبتعبير طلبي رقيق من الله كي يجعله بهذه المنزلة (الصابرين).

المطلب الثاني:

الآيات الداعية للصبر:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ)٣٥.

تكشف هذه الآيات المباركات القدرة الإدراكية لدى (الذين امنوا) لمعنى الصبر ودلالته المتحولة في السياق القرآني، فالخطاب الموجهة للمؤمنين هنا أراد التركيز حول دلالة الصبر وفهمها أولا ؛ لما لهذه الدلالة (الصبر) من تحولات تختلف باختلاف السياق والاستعمال ف الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسهما عنه، فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فكان حبس النفس لمصيبة صبرا لا غير وضده الجزع وان كان في محاربة سمي شجاعة ويضاده الجبن وان كان في نائبة مضجرة ؛ ولو أمعنا النظر في مهيمنات الخطاب القرآني في هاتين الآيتين لوجدنا دلالات تعزز هذا الفهم والإدراك، التي نبه لها الخطاب فجاءت بعدها دلالات تعزز هذا الإدراك في ذهن السامع لتمكنه من السير نحو التجربة الجمالية، أو تجاوزها إلى الموقف المراد أو الغاية القصدية من الخطاب، أو ما اصطلح عليه شيلر بالإحساس الجمالي، إلى الموقف الجمالي ؛ وقد أكدت الآية على الاستعانة بالصلاة، ويكمن هنا ارتكاز الجمال بوحدة الإيمان عند الإنسان وخشوعه ومناجاته التي تربط العبد برباط إيحائي مع ربه ؛ ونحس بقوله تعالى (الصابرين) من خلال المؤلف الرمزي الذي يهيمن على المكتنز الثقافي في عقولنا ونفوسنا، الذي يعد (الصابرين) بالجزاء الحسن، اللا منتهي بالخلود الأبدي وهذا وعد الله جلت قدرته.

قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) ٣٦.

يبدو من ظاهر السياق أن أفعال الأمر قد هيمنت على الخطاب، الذي يراد منه الطاعة، فقوله: (أطيعوا الله ورسوله) فالطاعة تدل على الإيمان كله، ولاسيما في القتال في سبيل الله، وهي نسق ثقافي – الطاعة- تعارفت عليه العرب والمسلمين ؛ فالعربي يضحي بمهجته في سبيل طاعة الله ورسوله، وهي من جماليات الأخلاق العربية، وقوله: (ولا تنازعوا) أمرهم بعدم التنازع بينهم وعدم الاختلاف، لأن الاختلاف يضعف القوم أمام عدوهم، وقوله: (تذهب ريحكم) وبهذه الصورة الجمالية عبر تعالى مجازياً عن قوتهم وعزهم ووحدتهم ودولتهم بكلمة واحدة هي (الريح)، والريح رمز القوة العاصفة المطلقة وهي من عناصر الحياة الأربعة،

أما الأمر الثالث قوله: (أصبروا)، فالصبر خير عون على الشدائد وهو منبع العزم والإرادة ويعطي الاطمئنان والتفكير الصحيح، وهذا من تجليات الإيمان والطاعة وإحساس المؤمن الجميل بانجاز أمر الطاعة، ثم جاءت طمأنينة النفس بقوله: (إن الله مع الصابرين)، وهذا خطاب تداولي يحيل إلى الذاكرة قدرة الله سبحانه وتعالى على نصر المؤمنين الصابرين في سبيله ؛ ومن كان الله معهم (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

الخاتمة

لعل النتائج أكثر من أن تحصى في أي بحث، فكل ما يقرأ الباحث أو يكتب تكاد تكون نتيجة ؛ لذا وفي نهاية المطاف وبعد أن أتم البحث رحلته خرج ببعض النتائج:

- لم يختلف علماء معجمات اللغة على تعريف الصبر.
- اتفق أصحاب الاصطلاحات على تعريف الصبر وفق الاصطلاح.
- الجمال الحقيقي هو صفة الله سبحانه وتعالى وهي أصل الجمال، ويراها فئة محددة من المؤمنين الصابرين عند دخولهم الجنة بعد رفع النقاب الإلهي لهم.
- الإدراك الجمالي يأتي بحسب الرؤية الإيمانية للإنسان.
- يرى البحث أن صفاء نية الإنسان مع الله سبحانه وتعالى، ومع نفسه ومع أخيه الإنسان، الجمال الحقيقي الذي أراده الله.
- الفطرة الذي وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان جمال بذاتها.

الهوامش

١ – البقرة:٣٠.

٢ – العين، الخليل الفراهيدي: ج٧، ١١٥.

٣ – الصحاح، الجوهري:ج٢، ٧٠٦.

٤ – سورة الكهف:٢٦.

٥ – وسائل الشيعة، الحر العاملي: ج١٥، ١٩٤.

٦ – ينظر: الأخلاق الحسينية، جعفر البياتي:٢٣٣.

٧ – ينظر: كنز العمال، المتقي الهندي:ج١٥، ٨٧٢.

٨ – كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي: ١٠٥٨.

٩ – ينظر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر: ٢١ .

١٠ – ينظر: فلسفة الأخلاق، إمام عبد الفتاح:٦٦ .

١١ – ينظر فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، احمد فؤاد الاهواني: ١٣٣،١٣٠.

١٢ – ينظر دروس في تاريخ الفلسفة، يوسف كرم ؛ إبراهيم بيومي:٧.

١٣ – ينظر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر: ٢٥ .

١٤ – ينظر: صورة الآخر في القرآن الخطاب القرآني، حسين عبيد:٥٧– ٥٩.

١٥ – ينظر الإحساس بالجمال، جورج سانتيانا، ترجمة: محمد مصطفى:٩٠.

١٦ – ينظر: الإدراك العقلي في الفنون التشكيلية، عبد الله الخطيب: ٥٨.

١٧ – نفسه:٦١.

١٨ – ينظر: مدخل علم النفس، لندال دافيدوف، ترجمة: سيد طواب:٢٥١–٢٥٣.

١٩ – ينظر: نفسه.

٢٠ – ينظر: مشكلة الفن، زكريا إبراهيم: ٣٥–٣٦.

٢١ – ينظر: نفسه : ٩٣ .

٢٢ – ينظر: صورة الآخر في القرآن الخطاب القرآني، حسين عبيد:٥٨.

٢٣ – ينظر: نفسه:٥٩.

٢٤ – ينظر: مقدمة في الدراسات الجمالية، محمد علي أبو ريان:١٠٦.

٢٥ –(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) و(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) الأعراف:٢٠٤

٢٦ – التين:٤.

٢٧ – البقرة:١٥٥.

٢٨ – البقرة:٢٤٩.

٢٩ – آل عمران:١٧.

٣٠ – آل عمران:١٤٢.

٣١ – آل عمران:١٤٦.

٣٢ – الأنفال:٦٦.

٣٣ – الأنبياء:٨٥.

٣٤ – الصافات:١٠٢.

٣٥ – البقرة:١٥٣.

٣٦ – الأنفال:٤٦.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الإحساس بالجمال، جورج سانتيانا، ترجمة: محمد مصطفى، الانجلو المصرية، (القاهرة، د. ت).
- الأخلاق الحسينية، جعفر البياتي، أنوار الهدى، ط١، (طهران، ١٤١٨هـ).
- الإدراك العقلي في الفنون التشكيلية، عبد الله الخطيب، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، (بغداد، ١٩٩٨م).
- الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، دار الشروق للتوزيع، ط١، (عمان، ١٩٩٧م).
- دروس في تاريخ الفلسفة، يوسف كرم ؛ إبراهيم بيومي، د. ط، (القاهرة،١٩٤٢م).
- ديوان عنتر، مطبعة الآداب، (بيروت، ١٨٩٣م).
- الصحاح، الجوهري (ت، ٣٩٣هـ) تحقيق: احمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، ط٤، (بيروت، ١٤٠٧هـ).
- صورة الآخر في القرآن الخطاب القرآني، حسين عبيد، التميمي للطباعة والنشر، ط٢، (النجف، ٢٠١٤م).
- العين، الخليل الفراهيدي (ت، ١٧٥هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي ؛ إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط٢، (بيروت، ١٤١٠هـ).
- فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، احمد فؤاد الاهواني، دار إحياء الكتب، ط١، (بيروت، ١٩٨٧م).
- فلسفة الأخلاق، إمام عبد الفتاح، مطبعة أطلس، (القاهرة، ١٩٩٠م).
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي (ت، ٨١٣ه)، دار الكتب العلمية، ط١، (بيروت، ١٩٩١م).
- كنز العمال، المتقي الهندي (ت، ٩٧٥هـ)، تحقيق: بكري حيالي، مؤسسة الرسالة، (بيروت، ١٩٨٩م).
- لسان العرب، ابن منظور (ت،٧١١ه)، دار صادر، (بيروت، د. ت).
- مدخل علم النفس، لندال دافيدوف، ترجمة: سيد طواب، المكتبة الأكاديمية، ط٤، (القاهرة، ١٩٨٣م).
- مشكلة الفن، زكريا إبراهيم، دار الطباعة الحديثة، (مصر، د. ت).
- مقدمة في الدراسات الجمالية، محمد علي أبو ريان، دار المعرفة الجامعية، (بيروت، ١٩٧٩م).
- وسائل الشيعة، الحر العاملي، دار المحجة البيضاء، (بيروت، د .ت).